تعطير الخاطر

من تعرُّف ابن عاشر

وهو شرح لنظم ابن عاشر في التصوف المسمى

مبادئ التصوف وهوادي التعرف

شرحه

عادل بن شعيب شلار الرفاعي

غفر الله له ولوالديه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الطول الغافر ، الذي هو ملائكته يصلون على النبي الزكي العاطر ، وفالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه أولى الفضائل والمآثر ، و رضي الله عنهم وعن تابعيهم في كل عصر غابر ، وأخص منهم في القرن العاشر عالما نبيلا يدعى ابن عاشر ، لأن نظمه كان سببا داعيا للناشر ، في فائدة الغائب والشاهد الحاضر . وبعد:

ابن عاشر هو : أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي ابن عاشر الأنصاري .

ولد بمدينة فاس سنة ٩٩٠ هجرية ، وطلب العلم فيها فحفظ القرآن الكريم ثم تلقى القراءات على يد الشيخ أبي العباس الكفيف والشيخ أبي عبد الله التلمساني وأجيز بها ، ثم تلقى

سائر العلوم كالعربية وعلم الكلام والمنطق والحديث والتفسير والفقه واصوله والحساب والفرائض وعلم الهيئة . على علماء فاس ، وألف كتبا في جميع العلوم ورحل إلى المشرق وأخذ التصوف عن العارف ابن عزيز التجيبي ثم ألف كتاب المرشد المعين على الضروري من علوم الدين فكتب الله به الشهرة والعالمية .

وكان ابن عاشر فاضلا زاهد ورعا ، توفي سنة ١٠٤٠ هجرية بمرض النقطة وهو مرض الجلطة الدماغية في عصرنا ودفن في فاس ، ويذكر بعض الناس انه مات مسموما والله اعلم.

واما كتابنا (تعطير الخاطر من تعرف ابن عاشر) فهو شرح لطيف لنظم مبادئ التصوف وهوادي التعرف طلبا لسرور خاطر السالك في طريق التصوف الصافي من الأوهام والبدع

والتعطر من التعرف على الذوات الشريفة والمعاني اللطيفة الهادية والكاشفة للظلم الكثيفة.

فاجعله يا ربي عملاً مقبولا لديك يسر به أهل الله وينتفع به الطلاب على مر العصور فإنك وولي كل نعمة وفضل ، فاكتب لي مرافقة أحبابك في مستقر رحمتك .

وأول نشرع به هنا هو سرد نظم الشيخ بن عاشر في التصوف ثم القيام بشرحه بيتاً بيتاً .

قال ابن عاشر رحمه :

كتاب مبادي التصوف وهوادي التعرف

وتوبةٌ من كلِّ ذنبٍ يُجْترمْ *** تجِبُ فوراً مطلقاً وهي الندم

بشرطِ الاقلاعِ ونفيِ الاصرارْ *** ولْيَتَلافَ ممكناً ذا استغفار

وحاصلُ التقوى اجتنابٌ وامتثالُ *** في ظاهرٍ وباطنٍ بذا تُنالُ

فجاءتِ الأقسامُ حقاً أربعهْ *** وهِيَ للسالكِ سُبْلُ المنفعهْ

يغضُّ عينيهِ عن المحارمِ *** يكفُّ سمعَهُ عنِ المآثِمِ

كغيبةٍ نميمةٍ زورٍ كذِبْ *** لسانُه أحرى بتركِ ما جُلِبْ

يحفظُ بطنَه من الحرامِ *** ويتركُ ما شبّهَ باهتمامِ

يحَفَظُ فرجَهُ ويتّقي الشهيدْ *** في البطشِ والسَّعيِ لممنوعٍ يُريدْ

ويُوقِفُ الأمورَ حتى يعلما *** ما اللهُ فيهنّ بهِ قدْ حكما

يطهّرُ القلبَ منَ الرياءِ *** وحسدٍ ، عُجبٍ وكلِّ داءِ

واعلم بأن أصلَ ذي الآفات *** حبُّ الرياسةِ وطرح الآتي

رأسُ الخطايا هُو حبُّ العاجلهْ *** ليسَ الدَّوا إلاّ في الاضْطرارِ لَهْ

يصحبُ شيخاً عارفَ المسالِكْ *** يَقِيهِ في طريقهِ المهالِكْ

يذكرُهُ اللهَ إذا رآهُ *** ويوصِلُ العبدَ إلى مولاهُ

يحاسبُ النفسَ على الأنفاسِ *** ويَزِنُ الخاطرَ بالقسطاسِ

ويحفظُ المفروضَ رأسَ المالِ *** والنفلَ ربحَه بهِ يوالي

ويكثِرُ الذكرَ بصفْوِ لبِّهِ *** والعونُ في جميعِ ذا بربِّهِ

يجاهدُ النفسَ لربِّ العالمينْ *** ويتحلّى بمقاماتِ اليقينْ

خوفٌ رجا ، شكرٌ وصبرٌ ، توبهْ *** زهدٌ ، توكلٌ ، رضا ، محبهْ

يصدُقُ شاهدَه في المعاملهْ *** يرضى بما قدّره الإلهُ لهْ

يصيرُ عندَ ذاكَ عارفاً بهِ *** حراً وغيرُهُ خَلا مِنْ قلبهِ

فحَبَّه الإلهُ واصْطفاهُ *** لحضرةِ القُدُّوسِ واجتباهُ

انتهت

قوله : (كتاب مبادي التصوف وهوادي التعرف)

الشرح :

يريد ابن عاشر رحمه الله أن يجمع في هذا النظم الأسس التي بنى عليها العارفون بالله منهجهم في سلوك طريق الوصول إلى معرفة الله تعالى ، إذ إن معرفة الله هي غاية ما يريد المؤمنون الوصول إليه ، وهذا الطريق سماه العارفون باسم التصوف لأن

طهارة والقلوب وصفائها ، وطهارة الاجسام وصفاء المعاملات هي أظهر المعاني التي ارتبطت بالسالكين في هذا الطريق .
وانقسمت موضوعات هذا النظم إلى مبادئ وهوادي :

فالمبادئ هي أسس السلوك في الطريق كالتوبة والتقوى والهوادي هي الأنور التي تهدي السالك للمعاني الشريفة والعطور التي تنعش روحه عند حضور هذه المعاني ، التي تدفع به للتعرف على بهاء وجمال صفات ربه الجليل العظيم .

قال ابن عاشر رحمه الله :

وتوبةٌ من كلِّ ذنبٍ يُجْترمْ * تجِبُ فوراً مطلقاً وهي الندم**

الشرح :

بدأ ابن عاشر رحمه الله ببيان حكم التوبة قبل تعريفها ، وذلك ليناسب مقام فورية وجوب التحلي بها ، كما ان ابن عاشر

رحمه الله أتى بلفظ (التوبة) نكرة ، وذلك تعظيما لشأنها وليناسب سعة استيعابها لجميع الذين تجب عليهم التوبة

والتوبة لها أربعة أركان هي :

الركن الأول : حدها ووجوبها على الفور على كل شخص في كل حال .

والركن الثاني : الذنوب وانقسامها إلى كبائر وصغائر ومتعلق بحق الله وبحق العباد .

والركن الثالث : شروط التوبة .

والركن الرابع : الباعث على التوبة وعلاج الاصرار على الذنب

وفي هذا البيت أجمل ابن عاشر رحمه ذكر الركن الأول والثاني

ونحن نريد ان نبين ما أجمله بشكل مختصر

الركن الأول :

بيان حد التوبة : التوبة هي معنى ينتظم من ثلاثة أنوار مرتبة وهي العلم فالحال فالفعل ، فأول ما يفيض على العبد نور المعرفة بضرر الذنب وأنه حاجب للعبد عن الرب المحبوب فيثير هذا العلم حالة من التألم على فوات محبوب وهذا الألم هو نور يسري في القلب فإذا سرى فيه هذا النور فإنه يحرك إرادة الإنسان فيندم ويحرك عزمه على ترك الذنب في الحال وعلى تلافي نتائج ذنبه في الماضي ويعزم على عدم العودة إليه .

لماذا اكتفى ابن عاشر بتعريف التوبة بأنه (الندم) ؟

ذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((الندم توبة)) رواه ابن حبان والحاكم على شرط الشيخين فالندم لا يخلو

عن علم وهذا يدركه كل عالم ، ولأن ابن عاشر لم يرد بالنظم الدراسة العلمية التفصيلة للمسائل إنما اراد تذكرة المريد للمعاني المختزلة في فؤاده لقوله تعالى ((وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين))

والآن نذكر بيان وجوبها على الفور :

اعلم أن وجوب التوبة يثبت عند الانسان من طريقين :
الطريق الأول :

شرحُ الله الصدر بالإسلام فإن الله إذا قذف نور الاسلام في قلب العبد عرف العبد بالبصيرة معنى السعادة بالإيمان بالله ومحبته والأنس به ، فيحصل في فؤاده علم بوجوب بالرجوع إلى الرب الستير علام الغيوب الرحمن الغفور الحليم التواب

الرحيم ويدفعه لتحصيل السعادة التي كشف له نور العلم عنها واختيار ترك أسباب البعد عن الله .

والطريق الثاني :

هو طريق التقليد فمن لم يكن في مقام انشرح صدره بنور الهداية فطريقه في الحكم بوجوب التوبة فورا هو اعتباره بغيره فإذا شاهد العاصين وما يحدث لهم من الخذلان والاضطراب ، ويشاهد الصالحين وما يحدث لهم من الطمأنينة والسكينة والسعادة ، ويدرس قصص التائبين ، فإنه يجد في داخله دافعا لتقليد الصالحين طلبا لما يراه من حسن أحوالهم مما يجعله يحكم على نفسه بوجوب التوبة وتقليد الكرام وتصديق اقاويلهم في فضل التوبة مثل قوله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا توبا إلى الله توبة نصوحا)) نصوحا : يعني خالصة لله خالية

من الشوائب ، فمن سمع هذا الكلام وقبل به وعزم على تقليد التائبين فإنه من جملة الذين آمنوا فان استجاب فقد صار محبوبا عند الله كما قال : ((إن الله يحب التوابين))

الركن الثاني من أركان التوبة :

الركن الثاني من أكان التوبة وهو الذنب الذي تكون منه التوبة ، فلما عرفنا ما هي التوبة وأنها واجبة على الفور فينبغي أن نعرف ما هو الذنب :

الذنب هو كل مخالف لأوامر الله في ترك وفعل ، والذنوب على أربعة صفات :

- الذنوب المتشعبة من الصفة الربوبية : وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

- الذنوب المتشعبة من الصفة الشيطانية : وهي الحسد والبغي والكذب والحيلة والخداع والمكر والأمر بالفساد الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال .
- الذنوب المتشعبة من الصفة البهيمية : وهي التكالب على حطام الدنيا والحرص على شهوة البطن والفرج كالسرقة والربا والغصب والبخل والزنا واللواط .
- الذنوب المتشعبة من الصفة السبعية : وهي الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل .

ثم إن الذنوب نوعان :

منها ما يتعلق بحق الله خاصة كالشرك وترك الصلاة والصيام ، ومنها ما يتعلق بحق العباد كترك الزكاة والاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

ثم إن الذنوب تنقسم إلى قسمين (الكبائر والصغائر)

فالكبائر : هي الذنوب التي رتب الله على فعلها أو تركها عقوبة الحد أو لعن أصحابها وتوعدهم عليها بنار جهنم كالشرك وعقوق الوالدين والزنا .

والصغائر : هي الذنوب التي لم يرتب الله على فعلها حداً أو لعناً أو وعيداً كالنظر إلى العورات و النساء وسماع غنائهن

ملاحظة :

بيان ذنوب المقربين :

إعلم ان ذنوب المقربين من الأنبياء والسابقين بالخيرات هي تقصيرهم في الشكر والتحميد وقصورهم عن أداء حق التعظيم لله وهم يعتبرون أنفسهم مذنبين ، والحالة التي هم عليها تعتبر

حسنات ومقامات عالية عند أهل الهمة من الأبرار الصالحين وهم يعتبرون أنفسهم مذنبين بالقياس من المقربين ، وحال الأبرار هي حسنات عن عوام الصالحين والعوام يرون أنفسهم مذنبين بالقياس مع أحوال الأبرار .

قال ابن عاشر رحمه الله :

بشرطِ الاقلاعِ ونفيِ الاصرارْ * ولْيَتَلافَ ممكناً ذا استغفار**

شرح :

في هذا البيت يبين ابن عاشر رحمه الركن الثالث من أركان التوبة وهو شروط اتمامها ودوامها ، وقد ذكرنا سابقاً ان التوبة هي عبارة عن ندم والندم حال أفرزه العلم ، هو توجع القلب لعلمه بفوات المحبوب بسبب الذنب فيورث الحسرة والحزن وانسكاب الدمع على ما فرط في جنب محبوبه ثم يتولد

فيه الرغبة في ترك السبب الذي حجب به عن الأنس بربه فينوي الإقلاع عن الذنب في الحال ويقصد عدم الإتيان به فيما يستقبل من الأوقات ، ويعزم على دوام الطاعة ودوام ترك المعصية ، وهكذا يكون قد حقق الشرط الأول من التوبة .

والشرط الثاني : أن ينفي من قلبه حالة الإصرار على الذنب وذلك بأن يجد دوام مرارة الذنب في قلبه ويبعد عنه حلاوة الشهوة للذنب وأن يرى أن ضرر الذنب هو لأنه مخالفة لله تعالى ، فإن شياطين الإنس والجن يزينون المعاصي للنفوس حتى تراها امراً حسنا فإذا وقع في مكائدهم اختفى من قلبه رؤية الضرر بالذنب ، أما إن عقد قلبه على أن ضرر الذنب هو لأنها مخالفة لله أمن من تلك المكائد ، وهكذا يسلم قلبه

من وجود الإصرار على الذنب ، ويصبح الندم والعزم على ترك الذنب دائما .

فالتائبون حسب وجدان مرارة الذنب ومعرفة ضرره أربعة :

تائب استقام على الطاعات طول عمره فهذا السابق بالخيرات ، وتائب استقام على الطاعات طول عمره غير ان له ذنوباً تعتريه بغير قصد فهذا صاحب النفس اللوامة ، وتائب تقهره شهوته فهو مقيم على الطاعات ويخلطها بالمعاصي فهؤلاء ممن قال الله عنهم ((خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا فعسى أن يتوب عليهم)) والرابع تائب ، استقام مدة ثم انتكس ورجع للمعاصي ، وهذا هو الذي زال من قلبه وجدان ضرر الذنب ومرارته .

والشرط الثالث : هو تلافي الأضرار التي خلفها الذنب و أداء الحقوق حسب إمكانه وعلى قدر طاقته ، والحقوق هي حق الله تعالى : فعليه قضاء الصلوات التي فاتته أيام المعصية ، وقضاء الصوم ، والنذور ، وعليه أداء حقوق العباد كالديون ورد المسروق والمغتصب ، وطلب السماح وإصلاح ما أفسده لهم من الأموال والأعراض والاستغفار لهم .

قال بن عاشر رحمه الله :

وحاصلُ التقوى اجتنابٌ وامتثالُ * في ظاهرٍ وباطنٍ بذا تُنالُ**

فجاءتِ الأقسامُ حقاً أربعهْ * وهِيَ للسالكِ سُبْلُ المنفعهْ**

شرح :

الركن الرابع من أركان التوبة : وهو الدواء الذي يعالج به داء الإصرار ، فاعلم أنه لا يمكن تحضير هذا الدواء إلا بمعرفة

أسباب الداء ، فالإصرار على الذنب سببه الغفلة والشهوة ، والدواء الذي يعالج هذه الأسباب مجموع في شيء يسمى التقوى ، والتقوى كما يعرفها لنا ابن عاشر رحمه الله ، أنها تحصل بالاجتناب والامتثال ظاهرا وباطناً.

والاجتناب : هو ترك الذنوب والابتعاد عن الطرق المؤدية لها ظاهرا وباطنا ، والترك ظاهراً أي يترك الأفعال والمقال الذي هو ذنب ، والترك باطناً هو أن يترك الفعل والقول السيئ إذا كان في خلوة وأن يترك الذنوب الباطنة في القلب كالتكبر والحقد والحسد .

والامتثال : هو فعل الطاعات ممتثلاً أي طائعا عن محبة ورغبة متخذاً في فعلها المثال والقدوة ويكون الامتثال ظاهرا كأداء الطاعات بالجسد واللسان ، ويكون باطنا كأداء الطاعات

في الخلوة والتحلي بالطاعات القلبية كالإخلاص والتوحيد والخشوع والصبر والمحبة والرضى والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة وغيرها من عبادات القلوب .

ولما كان الاجتناب في ظاهر وباطن والامتثال في ظاهر وباطن كانت أقسامها اربعة هي :

- الاجتناب ظاهراً
- الاجتناب باطناً
- الامتثال ظاهراً
- الامتثال باطناً

فهذا التقسيم يفتح للسالك طريق الوصول إلى حضرة الجليل سبُلَ المنافع الكثيرة لأن السالك لن تقف همته عند اجتناب

الجوراح لمعاقرة الذنوب والتحلى بالطاعات فيكون مسلماً عاديا ، لكن همته ستعلو لترك أمراض القلوب وتجليتها من القلب وتحليته بالطاعات القلبية بذلك يتحقق بالتقوى .

وسوف يذكر لنا ابن عاشر فيما يأتي ما هي الذنوب الظاهرة الخاصة بالجوارح والذنوب الباطنة الخاصة بالقلوب وما هي طاعات الجوارح والقلوب .

قال ابن عاشر رحمه الله :

يغضُّ عينيهِ عن المحارمِ * يكفُّ سمعَهُ عنِ المآثِمِ**

شرح :

بدأ ابن عاشر بالركن الأول من أركان التقوى وهو الاجتناب ، وبدأ بالقسم الأول من أقسام الاجتناب وهو الاجتناب ظاهرا ، وبدأ ببيان الذنوب التي تصيبها جوارح الانسان وهي العين

والأذن واللسان والبطن والفرج وما يتبعها من شمّ ولمس وحركة يد وقدم.

ولما كان الرأس هو أشرف الجوارح الظاهرة والرأس يحتوى على العنين والأذنين واللسان كان البدء به أولى ، ولما كان البصر هو أهم شيء لدى الانسان بدأ به فقال : يغض عينيه عن المحارم.

فما هو غض العينين وما هي المحارم التي يجتنب النظر إليها ؟

المقصود من غض العنين هو كف نظر العنين عن رؤية ما يذم شرعا وقصرهما عن الاتساع بالنظر وترك التمدد بالنظر يكون كف النظر بإغماض الطرف أو إدارة الوجه أو التحول من المكان ، وأما قصر العينين عن الاتساع بالنظر فكالطبيب الذي رخص الشرع له النظر للعورة للمداواة وكالقاضي الذي

رخص الشرع له النظر إلى صاحبة الدعوة ليتأكد من عدم التزوير ، فقد رخص الشرع لهما على قدر الحاجة فلا يجوز لهما استغلال الرخصة والتوسع في النظر إلى غير المحل المطلوب والإكثار من النظر بغير حاجة.

وإما ترك التمدد بالنظر فهو كقوله تعالى : ((ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)) فإن إدامة النظر إلى زخارف الدنيا ومد العين إليها يسلك بالإنسان إلى مسالك الحرام ويأخذ به إلى ابواب مهلكة .

المحرمات التي يجب غض البصر عنها :

-العورات : فيغض بصره عن عورات النساء والرجال ولا يباح ذلك على الدوام إلا للزوجين.

-التجسس : وهو القيام بسلوك سبل رؤية ما وراء الجدر وما بداخل المنازل والخزائن مما يخفيه الانسان من المباحات كإخفاء مال وطعام ولباس وأمانات لا يريد أحداً يراها ، وما يخفيه من المحرمات التي يستتر نفسه من اظاهرها للناس كإخفائه خمرا في بيته.

-الفواحش : فيغض نظره عن رؤية الفواحش كرؤية الذين يعاقرون الخمر ويلعبون الميسر ويرقصون رقص الفجار.

وأما كف السمع فيكون بإسكات المتكلم إن كان قادرا على ذلك ، أو بترك المجلس الذي يحدث فيه الصوت المحرم والكلام الآثم ، فإن لم يقدر على اسكات الصوت ومنع الكلام ولم يقدر ترك المجلس سد اذنيه عن السماع.

وعبر ابن عاشر بالكف لأن الكف يتناول السامع فيكف نفسه ويتناول غيره فيمنعه عن إصدار الصوت والكلام المحرم

ما هي الامور التي ينبغي كف السمع عنها ؟

سيأتي بيان ذلك إن شاء الله في في شرح البيت التالي :

قال ابن عاشر رحمه الله :

كغِيبةٍ نميمةٍ زورٍ كذِبْ * لسانُه أحرى بتركِ ما جُلِبْ**

شرح :

بينا في شرح البيت السابق ما هو كف السمع ، وفي شرح هذا البيت نبدأ ببيان ما هي الأمور التي يجب كف السمع عنها :

كل ما يأثم الانسان بالنطق به يأثم بسماعه من نفسه ومن الآخرين كالنياحة والمعازف ومن أشهر هذه المنطوقات الآثمة الغيبة والنميمة والزور والكذب ، وبدأ ابن عاشر بالغيبة والنميمة لأنها أكثر ما يتعاطاه الناس من المآثم وأشهرها ،

فماهي الغيبة ؟

بين لنا النبي ﷺ ما هي الغيبة والهتان عندما سأله رجل : ما الغيبة؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع)) قال : يا رسول الله ، وإن كان حقا ؟ قال رسول الله ﷺ: ((إذا قلت باطلا فذلك البهتان)) رواه الامام مالك في الموطأ

والغيبة حرام لقوله تعالى ((ولا يغتب بعضكم بعضا)) وقد صور الله الغيبة في عالم المثال بصورة مكروهة شنيعة وهي أن

المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه الميت على المغتسل فقال تعالى : ((أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه))

ومن الغيبة الهمز واللمز والسخرية والتنابذ بالألقاب التي يكرهها الانسان وحكاية الانسان وتقليد قوله وحركته إذا كان يكره ذلك .

قال تعالى : ((ويل لكل همزة لمزة)) والهمزة هو الطعان على الناس من خلفهم في غيبنهم ، واللمزة هو الذي يعيبهم مواجهة في حضورهم ، و قال تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)) وروى الامام أحمد عن عائشة، أنها حكت امرأة ، فقال لها رسول الله ﷺ: ((ما أحب أني حكيت أحداً ، وأن لي كذا وكذا)) فالنبي ﷺ كره من عائشة تقليدها

وأما النميمة : فهي نقل الكلام بقصد الضرر والإفساد ، قال عليه الصلاة والسلام : ((لا يدخل الجنة قتّات)) متفق عليه وفي رواية أخرعند مسلم ((لا يدخل الجنة نمام)) والقتات هو النمام الذي يتسمع على الناس وينقل اقوالهم للسلطان إضرارا بهم .

والنميمة من أسباب عذاب القبر ، فعن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: ((أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله)) متفق عليه .

- **هل هناك حالات تباح فيها الغيبة ؟**

وقبل ان نبين الحالات التي تنباح فيها الغيبة ، ينبغي معرفة حقيقة من الحقائق وهي أن الله ورسوله ﷺ لا يتعلق بهما غيبة فإذا وصف الله ورسوله ﷺ قوماً وذكرهم بما يكرهون تصريحا وتعريضا فذلك حق ولا يدخل في مسمى الغيبة لأن

الله هو الحاكم على الشيء ولأن النبي لا يتكلم إلاّ بأمر من الحاكم الحكيم ﷻ .

تباح الغيبة في ست حالات :

١- التظلم : فيذكر للقاضي والسلطان عن فلان انه ظلمه وفعل بها كذا وقال عنه كذا ولا يزيد فوق ما يتحصل به على حقه .قال الله تعالى : ((لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم))

٢- الاستعانة بقادر للتوصل إلى إزالة المنكر فيجوز ان يذكر له السوء الذي يفعله فلان ليردع ظلمه ويرده عن غيه كاستعانة الصحابة بالنبي عليه الصلاة والسلام في ردع المنافق الذي قال : سمن كلبك ياكلك لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

٣- الاستفتاء كقول هند للنبي عليه الصلاة والسلام : ((يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح)) رواه البخاري

٤- التحذير من أصحاب البدع ومن المجروحين بنقل الخبر والذين يشهدون الزور والفاسق المجاهر ببدعته والذي يصدر اموال الناس ويأخذ المكوس كقول النبي ﷺ : ((ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا)) وقوله ((ائذنوا له بئس أخو العشيرة))رواهما البخاري

٥-بيان حال من جاء خاطبا أو راد مشاركة ووكالة ومن لا يصلح كفيلا أو ولاية ويكون ذلك بالتعريض فإن لم ينفع صرح بدون زيادة عن حصول الفائدة المرجوة من الكلام . كقول النبي عليه الصلاة والسلام لفاطمة بنت قيس ((أما أبو جهم ، فلا يضع عصاه عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد)) رواه مسلم

٦- تعريف الشخص باللقب الذي فيه تنقيص إذا كان لا يعرف إلا به كقولنا الأعرج والأعمش والأحول ويكون ذلك بنية التعريف لا بنية الانتقاص .

الزور والكذب ووجوب كف السماع عنها :

نرى ابن عاشر رحمه الله قدم ذكر الزور عن الكذب لأن الزور هو نوع قوي من أنواع الكذب وذلك لأن الكذب هو الإخبار بخلاف الحقيقية ، أما الزور فهو كذب يُحَسَّن ويُزيَّن بحيث يظهر أنه هو الحقيقة وقد يستخدم الأدلة على اظهار الباطل حقاً وهكذا فالزور أقوى أنوع الكذب والكذب من كبائر الذنوب لذلك فإن النبي ﷺ جعل يردد النهي عنها كثيراً ، فقال ﷺ : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) ثلاثا ، قالوا: بلى يا رسول الله ، قال : ((الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين)) وجلس وكان متكئا فقال: ((ألا وقول الزور)) ، قال: فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وأعظم أنوع الزور هو الشرك بإظهار ربوبية غير الله وتحسين ذلك للعابدين ، والتفنن في تكذيب الحق وإلباس الحق لباس الباطل والنقاصة قال الله تعالى : ((فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)) وقال تعالى : ((وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)) فقد وصفوا الحق بالإفك ثم راحوا يزينون كذبهم بأدلة منطقية كوصف النبي بأنه لا يستحق أن يكون رسولا فهو بشر يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وليس عظيم القريتين .

ومن أمثلة الزور الشهادة الكاذبة واستخدام اليمين الكاذب الذي يغمس صاحبه في النار قال تعالى وفي وصف عباد الرحمن : ((وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)) أي لا يحلفون يمين الغموس ولا يحضرون حلفها ولا يؤيدون فاعلها فإنهم إذا كانوا يتعففون عن حضور مجالس اللغو فتعففهم عن حضور مجالس الاثم أولى وأعظم ، وقد سئل النبي ﷺ عن اليمين الغموس فقال : ((الذي يقتطع مال امرئ مسلم، هو فيها كاذب)) رواه البخاري

ومن أمثلة الزور الظهار فإن الله كرهه واعتبره كذبا وطلب المؤمنين أن يتوبوا منه فقال تعالى : ((الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ

نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ))

ومن أمثلة الزور تشبع المرأة بما لم يعطها زوجها فتقول أعطاني زوجي كذا وجلب لي كذا لتستمتع بإغاظة ضرتها ولتقرع الضرةُ رأس زوجها حتى يفكر في طلاقها ، روى البخاري ومسلم عن عائشة ، أن امرأة قالت : يا رسول الله أقول إن زوجي أعطاني ما لم يعطني فقال رسول الله ﷺ: ((المتشبع بما لم يعط ، كلابس ثوبي زور))

ومن الزور شيء يسميه العلماء التدليس مثل حذف الرواي الفاسق من السند أو تغيير اسمه لإظهار سند الحديث بمظهر الصحة والقوة .

مسألة : مما يشبه الزور وليس منه شيء يسمى التنكير قال الله تعالى حكاية عن سليمان : ((قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون)) فالتنكر هو تغيير الشيء للوصول إلى طاعة الله ، كما كان يفعل الخلفاء

المقسطون فإنهم يتنكرون بلباس الفقراء ويستطلعون اخبار الرعية .

والكذب : هو الاخبار بخلاف الواقع ، والكذب محرم فعله وسماعة ومعلوم تحريمه من الدين بالضرورة ولا يخفى على المسلمين أدلة التحريم من الكتاب والسنة .

واعلم أن تحريم الكذب ليس لذاته وإنما لما فيه من الضرر فأقل ما فيه من الضرر هو جعل السامع للكذب يعتقد شيئا غير صحيح ، فالجهل بالشيء افضل من اعتقاد شيء خلاف الواقع .

وقد يكون الكذب مباحا في حالات فمن حمل السيف وأراد أن يقتل مسلما ثم طلب منك أن تخبره عن مكانه فإنه يجب عليك الكذب ، لأن الصدق يتحقق به الضرر .

وإما عن ضابط معرفة متى يباح الكذب فنقول :

الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام وإن أمكن

التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح .
لذلك فإن النبي ﷺ رخص بالذب في ثلاثة أمور ، روى مسلم عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : (ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها)

وعنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ((ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا)) متفق عليه

وروى الامام مالك في الموطأ عن صفوان بن سليم ، أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : أأكذب امرأتي يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ: ((لا خير في الكذب)) فقال الرجل: يا رسول الله: أعدها وأقول لها ؟ فقال رسول الله ﷺ: ((لا جناح عليك))

ويدخل في هذه الحالات الثلاث ما في معناها ، كأن يسأله سلطان عن معصية بينك وبين ربك فله أن يستر نفسه ، أو

يسأله ظالم عن ماله ليأخذه أو يسأله عن سر أخيه فله الكذب ليحفظ عرض أخيه وله ان يطيب قلب نسائه بالكذب بالمحبة .

وقد ندب أصحاب النبي الناس إلى استعمال المعاريض وهو التورية بأن يكون للكلام أكثر من معنى فيستعين بهذا النوع من الكلام ليعف نفسه عن الكذب فقد قال عمر ﵁ ((إن في المعاريض ما يكف أو يعف الرجل عن الكذب)) وقال عمران بن الحصين ﵁ : ((إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب)) رواهما ابن ابي شيبة .

ومن الكذب المذموم الظن السيء فإنه يضر صاحبه ويجره إلى الاضرار بالمظنون به والسعي للتجسس عليه وهتك ستره ، قال الله تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم)) وقال رسول الله ﷺ : ((إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد

الله إخوانا)) متفق عليه واما الحديث الضعيف : ((احترسوا من الناس بسوء الظن)) فيعني لا تصدقوا كلام الفاسقين واحترسوا من كذبهم .

وختم ابن عاشر بقوله (لسانه أحرى بترك ما جلب) فإنه ذكر أولا كف السماع عن المآثم ثم ذكر صيانة اللسان عن النطق بالغيبة والنميمة والزور والكذب .

قال ابن عاشر رحمه الله :

يحفظُ بطنَه من الحرامِ * ويتركُ ما شبِّهَ باهتمامِ**

الشرح :

ذكرنا فيما سبق أن التقوى اجتناب وامتثال ، وان الاجتناب يكون ظاهرا وباطنا والامتثال يكون أيضاً ظاهرا وباطنا ثم بين لنا ابن عاشر رحمه الله القسم الأول من التقوى وهو الاجتناب ظاهرا ويشمل سبعة أمور هي :

غض العينين عن المحارم ، وكف السمع عن المآثم وحفظ البطن عن الحرام والشبهات وحفظ الفرج عن الزنا وحفظ اليد عن البطش والبغي وحفظ الرجل عن السعي لممنوع شرعا ، وحفظ العقل عن مخالفة الحق الذي حكم الله وبه ورسوله وقد وصلنا في هذا البيت إلى الأمر الظاهر الثالث الذي يجب اجتنابه وهو حفظ البطن أن يدخل فيه طعام من سحت وحرام .

وأقبح ما يدخل في البطن من الحرام أكل السحت قال تعالى : ((أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)) والسحت هو أكل الربا وقد توعد الله آكل الربا بالحرب إضافة للخزي والعذاب العظيم ، قال الله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ))

ومن أقبح ما يدخل البطن من الحرام أكل مال اليتيم ظلما ، قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا))

ومن أقبح ما يدخل البطن من الحرام المتاجرة بالدين وتحريفه والإفتاء الباطل مقابل المال ، قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ))

ومن أكل الحرام ما يكون عن طريق السرقة والغصب والرشوة والاحتيال قال تعالى : ((وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ)) فهذه الآية تشمل السرقة والغصب والرشوة والاحتيال كالمنفق سلعته بالحلف او بالتزيين ، فهذه كلها من الحرام البين الواضح ، ومن المحرمات المحضة التي تدخل البطن : الخمر والدم ولحم الخنزير والميتة .

وهناك أمور لا يكون الحلال فيها صافياً فهذه هي الشبهات ، وهي الأمور التي اختلف الفقهاء في حلها وحرمتها وكراهتها والمطلوب من السالك طريق النجاة أن يكون له عناية واهتمام بترك الشبهات حتى يتحقق له مطلب الزهد في الدنيا .

مسألة :

أفتى ابن مسعود رضي الله عنه في الرجل يدعوه جاره إلى طعام وهو يعلم أن كسب الجار مختلط ، فأكل من طعامه فإن الذي

أكله الضيف يحسبه الله من القسم الحلال وذلك قياسا على قوله تعالى ((وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ)) فإن أهل الكتاب لا تخلوا ارزقهم من ربا .

قال ابن عاشر رحمه الله :

ويُوقِفُ الأمورَ حتى يعلما * ما اللهُ فيهنّ بهِ قدْ حكما**

شرح :

ما نزال في القسم الأول من التقوى وهو الاجتناب ظاهرا ، ووصلنا إلى الأمر السابع من الأمور الظاهرة التي يطلب اجتنابها ، وهو اجتناب قبول الاحكام المخالفة لحكم الله ورسوله واجتناب العمل بها ، وهذا الاجتناب يؤدي بالسالك إلى توقفه في معرفة حكم الأمور حتى يعلم حكم

الله فيها ، ثم يعمل بما يوافق حكم الله ويجتنب العمل بما يخالف حكم الله .

- قال الله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) فهذا خطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه أن لا تحكموا في شيء أنه حق وباطل أو حلال وحرام أو خير وشر قبل أن يحكم الله ورسوله ﷺ ، فعليهم أن يتقوا الله ويخافوا عقابه إذا تقدموا برأيهم قبل ان يأذن لهم رسول الله صلى الله وسلم .

وهذه الآية الكريمة تطالبنا نحن أن لا نتقدم برأي وحكم وفتوى في شيء قبل أن نعرف حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

– قال تعالى : ((وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)) أي لا تتبع رأيا ولا تعمل بفتوى لا تعلم أنها حق ، موافق لشرع الله وسنة رسوله ﷺ .

- وينبغي تعظيم رسول الله واجتناب مخالفته لأن ترك تعظيمه يجعل الانسان مفتونا فيميل للنفاق والكفر ، ولأن مخالفة الرسول ﷺ نار ، قال تعالى : ((لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))

- والقضاء بغير علم سواء وافق أو خالف الحق يصلى صاحبه النار ، قال رسول الله ﷺ : ((القضاة ثلاثة: واحد في

الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود واللفظ له .

قال ابن عاشر رحمه الله :

يطهّرُ القلبَ منَ الرياءِ * وحسدٍ ، عُجبٍ وكلِّ داءِ**

شرح :

ذكرنا سابقا أن التقوى هي اجتنابٌ وامتثالٌ ظاهرا وباطنا ، ثم فصلنا القسم الأول من التقوى وهو الاجتناب ظاهراً ، وفي هذا البيت نبدأ ببيان القسم الثاني من التقوى وهو الاجتناب باطنا .

وأول الأمور الباطنية التي يجب اجتنابها هو الرياء لأن الرياء نوع من أنواع الشرك ويسمى الشرك الأصغر والشهوة الخفية

قال رسول ﷺ ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)) رواه الامام احمد بسند جيد

ما هو الرياء : هو وجدان لذة ملاحظة والناس وثنائهم فيظهر العبادة ويزينها بالحسن والنشاط ويغالب شهوات الدنيا ويستحقر المعاصي طمعا في الحظوة والجاه والشهرة .

لذلك كان منهج المتقين دفع المريد إلى الخمول والخفاء والعمل لوجه الله وجعل النشاط فيه وتحسينه طمعا في رضوان الله ، ويدربون المريد على إظهار العجز والضعف وعدم الاهتمام بمدح الناس ويحذرون من الافتتان بثائهم إذا قدر الله للمريد ان يظهر في الدعوة إلى الله .

– ذكر الله الرياء من اعمال الكفار والمنافقين فقل عن الكفار ((الذين هم يراؤون)) وقال عن المنافقين ((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا))

وقال رسول الله ﷺ : ((من سمّع سمّع الله به ومن يراء يراء الله به)) رواه البخاري ومسلم ، سمع بتشديد الميم ومعناه من أظهر عمله للناس رياء أظهر الله نيته الفاسدة في عمله يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأشهاد .

–العبّاد والعلماء والمنفقون والمجاهدون هم أقرب الناس للابتلاء بالرياء ، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي

في النار ، ورجل تعلم العلم ، وعلمه وقرأ القرآن ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)) رواه مسلم

الحسد :

ومن الأمور الباطنية التي يجب اجتنابها الحسد ، وهو تمني زوال النعمة عن المسلمين ومن في امان عهدهم وذمتهم ومنعهم من إصابة الخير.

وهكذا فإن تمني زوال النعمة وأسباب القوة عن الكفار المحاربين للمسلمين ليس من الحسد فقد قال الله تعالى : ((وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ))

-وأما إذا منع المسلمون المنافقين من الحصول على مكاسب ليست من حقهم فهذا ليس من الحسد ، فإن قال أحد عن المسلمين : حسدوهم فمنعوهم النعمة ، فالقائل لم يفقه حقائق الاسلام ، قال الله تعالى : ((سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا))

كيف نتعامل مع الحاسد:

لقد جعل الله للحاسد عقبى السوء وفي انتظاره الهلاك وقد ندب الله المؤمنين إلى اتخاذ الحذر من مكائد الحاسد ، وندب المؤمنين إلى اتخاذ سبيل العفو والصلح عما يكون منه من الجهل والعداوة ، وندبهم للصبر والانتظار إلى ان ينتقم الله منه . قال الله تعالى : ((وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))

وندب الله المؤمنين للاستعاذة من شر الحاسدين فأنزل عليهم سورة الفلق وأودعها الأسرار القاطعة للحاسدين والمانعة من نفوذ شرهم ، ومن اعظم شرور الحاسد استعمال السحر حتى

ان النبي ﷺ قد ناله من اليهود الحاسدين سحر عظيم لكن لم يؤثر فيه وقد عصمه الله من كيدهم.

واعلم أن الحسد يضعف الايمان ويعمل على إخراجه من القلب لأن الحسد يجر الحاسد إلى الاعتراض على حكمة الله بتوزيع النعم ، قال رسول الله ﷺ : ((لا يجتمع في جوف عبد الايمان والحسد)) رواه ابن حبان وصححه

والحسد يجر الحاسد إلى إيذاء المحسود بالغيبة والنميمة والافتراء والبهتان والضرب والشتم فتكثر سيئاته وتقل حسناته فيصر كأن السيئات تأكل الحسنة ، لذلك قال النبي ﷺ : ((إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)) رواه أبو داود وهو حديث حسن بطرقه

الحسد المحمود : (الغبطة)

هو أن تتمنى لنفسك ما لغيرك من النعم دون زوالها عن الغير ، قال عليه الصلاة والسلام : ((لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار)) متفق عليه ، أي لا حسد مباح إلا في اثنتين

العجب :

ومن الأمور الباطنية التي يجب اجتنابها العجب ، وهو بضم العين وتسكين الجيم ، والعجب هو استعظام النعمة والركون إليها ونسيان إضافتها للمنعم .

فاستعظام النعمة يكون بفرح الانسان بعلمه وعمله وماله وقوته ورؤية الكمال فيها وتزكية النفس واستصغار الذنوب

فلا يرى عيوب نفسه ولا آفات اعماله ويحب الثناء والمدح والركون إليها بأن لا يخاف زوالها فالذي يخاف زوال النعمة وينقلب حاله فليس بمعجب .

ومن أسباب العجب نسيان أضافة النعم للمنعم ، فمن فرح بالنعمة لأنها من المنعم فليس بمعجب ، ولقد كان قارون من المعجبين المزهوين بنفسه وكان ينسى إضافة النعمة إلى المنعم سبحانه وتعالى فقال الله حكاية عنه : ((قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)) يريد ان المال والقوة التي هو فيها جاءت بعلمه واجتهاده وليس من الله .

فقال تعالى : ((فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ))

نتائج العجب :

- الخسارة قال تعالى : ((قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا))

- الضيق وفوات النصر الحاسم ، قال تعالى : ((وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا))

- الهلاك   وتبديل الأمن خوفا والخسف ، قال الله تعالى ((وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)). فقد كان الكفار معجبين بحصونهم لا يخافون زوال قوتهم

علاج العجب :

- اعتزال المعجبين قال عليه الصلاة والسلام : ((ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام)) رواه الترمذي بسند حسن

- استعظام الذنب ودوام اتهام النفس بالتقصير .

- الفرح بالنعمة على انها من الله .

- الخوف من زوال النعمة ودوام الطلب من الله بقاء النعمة والزيادة فيها .

لماذا لم يذكر ابن عاشر الكبر ؟

اكتفى ابن عاشر بذكر العجب لأن العجب هو الحالة الممهدة لنشوء الكبر في الإنسان والعجب هو السبب الرئيسي للكبر ، فالعجب يؤدي للإدلال بالنفس ثم يقود للكبر ، وقد كان اللعين ابليس يجتهد في العبادات حتى صار له مكانة مرموقة بين الملائكة فقاده العجب بالنفس الى ظنه ان له حقاً عند الله فصار يمنن ربه بعمله ، ثم حدث أن تكبر على أوامر ربه .

وقول ابن عاشر رحمه الله (وكل داء) أي يطهر القلب من كل مرض من أمراض القلوب ، وطوى ابن عاشر رحمه الله ذكر هذه الأمراض لأنها مطوية في (الرياء والحسد والعجب) وأغلب أمراض القلوب متفرعة من تلكم الثلاثة .

فمن الرياء يأتي النفاق وهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر ومن النفاق يأتي الخداع والخيانة قال الله تعالى ((يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)) .

ومن الحسد يأتي الحقد ومن الحقد يأتي الفساد والخصومة والغضب والظلم والشح الفجور بسفك الدماء وهتك الأعراض واكل الأموال قال عليه الصلاة والسلام : ((اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)) رواه مسلم

ومن العجب يأتي التكبر والكبر عرّفه رسول الله صلى الله عليه فقال : ((الكبر بطر الحق وغمط الناس)) بطر الحق أي عدم

قبول الحق وعدم الاذعان له ، وغمط الناس تعمد إيذاء الناس بغير حق .

وإن الله حذر من التكبر رتب له امورا منها :

- نار جهنم : فقال تعالى : ((قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)) بل إن ذرة من الكبر كفيلة أن يحرم بها الذي عرف الحق من الجنة ، فلذلك قال رسول الله ﷺ : ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) رواه مسلم .

- الطبع والصرف ، لأن المتكبر لا يصير متكبراً إلا إذا عرف الحق ثم رفضه لذلك فإن الله يصرفه عن رؤية الآيات الإيمانية ، ويطبع على قلبه فلا يهتدي ، قال تعالى : ((سَأَصْرِفُ عَنْ

آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)) وقال : ((كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ))

- العذاب والخزي في الدنيا كما حدث لفرعون وهامان وقارون وسائر الأمم التي عذبها ربنا.

قال ابن عاشر رحمه الله :

وأعلم بأن أصل ذي الآفات * حب الرياسة وطرح الآتي**

رأس الخطايا هو حب العاجله * ليس الدوا إلا في الاضطرار له**

شرح :

بعد أن ذكر لنا ابن عاشر رحمه الله أكبر الآفات التي يجب اجتنابها ظاهراً وباطناً ، دلنا على أصل هذه الآفات ، والأصل هو العنصر الخبيث الذي تنبع منه هذه الآفات ، وهذا العنصر هو حب الترؤس على الخلق ، وهو العنصر

الذي كان موجودا في إبليس فكان يجتهد في العبادة والذكر اجتهاًدا كبيرا لأن قلبه ملئ بحب الترؤس ، وقد استدرجه ربه وأملى له ، فجعله رئيسا على الملائكة الذين بينهم ولم يرفعه رتبة أعلى إذا لم يجعله رئيسا على العالين وهم الملائكة الكروبيون وهم حملة العرش وجبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك ورضوان وملك الموت وكتبة اللوح ، وظل إبليس يجتهد بالعبادة معجبا بنفسه طمعاً في أن يصبح رئيسا على كل مخلوق ، إلا أن خلق الله آدم ، وامتحن الله إبليس بالسجود والخضوع له ، وكيف لمن ملئ بحب الرياسة أن يستجيب ، فأوقعه حب الرياسة في التكبر على الله وعلى خلق الله ثم منعه التكبر من التوبة وقاده إلى كل إثم فارتكب إبليس كل آفة ودعا الى ارتكابها .

ومعنى قوله (وطرح الاتي) أي وأصل هذه الآفات حب الدنيا وترك الأمور التي سيأتي ذكرها ، وهذه الأمور هي محبة القدوة وصحبة الصادقين ومحاسبة النفس والمحافظة على الفرائض والنوافل وكثرة الذكر والتحلي بمقامات الايمان فمن تركها أصيب بكل آفة .

ثم ذكر لنا ابن عاشر رحمه الله أن الذنوب التي تفعل بقصد وبدون قصد تنبع من حب الدنيا ، قال الله تعالى : ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا))

وقال رسول الله ﷺ: ((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)) رواه

الترمذي وقال حديث حسن صحيح . فالدنيا تتحصل للإنسان بالحرص على المال والجاه ، فيحصل على المأكل والملبس والمنكح والمتع والتسخير والاستعباد والمدح والثناء ومن بين تلك الأمور تكون الخطايا والآثام فيكون حب الدنيا والجاه كذئبين جائعين تركتهما في ذريبة غنم فالمال والجاه يفسدان الدين افساداً اعظم من إفساد ذينك الذئبين ، قال رسول الله ﷺ : ((من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى)) رواه الامام أحمد وصححه ابن حبان والحاكم .

لذلك فإن الدنيا ضرة الآخرة وكلها ضرر وداء ولا دواء فيها إلا ما يأخذه الانسان من متعها ولذاتها أخذ المضطر لصلاح دينه وبقاء حياته ، قال الله: ((ولا تنس نصيبك من الدنيا))

وقال رسول الله ﷺ : ((إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)) رواه مسلم

قال ابن عاشر رحمه الله :

يصحبُ شيخاً عارفَ المسالِكْ * يَقِيهِ في طريقهِ المهالِكْ**

يذكرُهُ اللهَ إذا رآهُ * ويوصِلُ العبدَ إلى مولاهُ**

شرح :

بعد أن ذكر لنا ابن عاشر رحمه الله أن منهج التصوف مبني على أمرين هما التوبة والتقوى وذكر لنا وجوب التوبة وبين أركانها وشرائطها ، ثم ذكر التقوى بأنها اجتناب وامتثال

وذكر لنا المجتنبات ظاهرا وباطنا ، ثم بدأ يذكر لنا الأمور التي يجب امتثالها ظاهراً وباطناً :

وأول الأمور التي يجب الامتثال لها ظاهرا هي اتخاذ القدوة الصالحة والأسوة الحسنة وصحبة الصادقين ، قال الله تعالى : ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)) وقال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)) وقال : ((وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)).

فأنت أيها المؤمن مأمور بأن تتخذ النبي عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة وتتخذ مع رسول الله ﷺ سبيلا موصلا للسعادة في الدنيا والآخرة ، وان تكون مصاحبا للصادقين من المؤمنين. وحتى تتخذ مع الرسول سبيلا لابد أن تصحب من صحب

الصالحين الذين صحبوا الصالحين وهكذا لتصل السلسة المتصلة بالصحبة إلى الذين صحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلا ينبغي أن يتأخر البحث عنهم وصحبتُهم ، قال رسول الله ﷺ : ((تقدموا فأتموا بي ، وليأتم بكم من بعدكم ، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله)) رواه الإمام مسلم

وبعد أن عرفت أنه ينبغي البحث عن شيخ متصل إسناد العلم والحال إلى الذين صحبوا النبي ﷺ ذكر لنا ابن عاشر أهم الشروط الذي يجب أن تتوافر في الشيخ الذي يجب على المريد صحبته وطاعته ، وهي :

– **المعرفة** : أن يكون الشيخ عارفا بكل طرائق الهداية التي سلك فيها السالكون الأولون فوصلوا فيها إلى رضى ربهم الرحمن الرحيم ، وهذه المسالك مجموعة في الكتاب والسنة

فالشيخ لا بد أن يكون عالماً بمعاني القرآن وعارفا بالسنن والآداب النبوية .

- **الوقاية** : وذلك بأن يكون الشيخ عارفاً بالصعوبات والعقبات والآفات والمكائد والموانع التي تصيب السالك ولديه العلم بكيفية تذليل الصعوبات ومجاوزة العقبات ، وإزاحة الآفات ، والتحصن من المكائد وتحطيم الموانع ، ويكون لديه القدرة على فعل ذلك للمريد لا مجرد النصح والتنظير ، بل يأخذ بيد المريد وينجيه من البليات ، وهذا الفرق بين الشيخ والأستاذ ، فالأستاذ عارف ينظّر لك وينصحك والشيخ يأخذ بيديك ويغيثك ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الآخذ بيد جميع المشايخ لذلك يقول الشيخ (يا رسول خذ بيدي) .

- **صاحب حال** : وذلك العاصي إذا رأى الشيخ الصالح فإنه يذكر الله ويصلي على رسول الله ﷺ ، وإذا جالسه فإنه الايمان في قلبه يزداد وتعلو همته على التقوى والعبادة فكأنه كالطائرة شحنت بالوقود .

- **الوصل** : فالشيخ يوصل الناس كلهم بالله ويوصل المريد بشكل خاص ، فأي مسألة من مسائل العباد وأي حاجة من حاجاتهم يكونون على تعامل فيها مع الشيخ فإن الشيخ يربط لهم كل شيء بالله ، ويدلهم على ربط أمورهم كلها بالله ، وهذا إيصال العوام إلى الله ، وأما الوصل الخاص فهو توصيل المريد إلى حالة الحضور مع الله والخشوع بين يديه ، وإخلاص التوحيد حتى يصير بحالة لا يرى في قلبه أحداً إلا الله .

قال ابن عاشر رحمه الله :

يحاسب النفس على الأنفاس * ويزن الخاطر بالقسطاس**

شرح:

ذكرنا أن الأمر الأول من الامتثال ظاهراً هو الكينونة مع الصادقين وملازمة المتقين وصحبة شيخ عارف مرشد موصل إلى الله ومن شؤون الصادقين أنهم يتعاونون على البر والتقوى ويتواصون بالحق والصبر والمرابطة في سبيله ، كما قال الله تعالى: ((وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ))

ومن التوصية بالحق أن يأمر الشيخ مريد طريق الوصول لله بأن يحاسب نفسه كثيرا حتى يصل به الأمر أن يحاسب نفسه على الانفاس والخواطر.

ومحاسبة النفس لا تتم إلا بأمور هي:

-مشارطة النفس في بداية كل يوم فيتمثل نفسه في الجنة يأكل من نعيمها ويعاشر أبكارها ويسمع للقرآن من فم النبي ﷺ ، ويتمثل جهنم يصلى نارها ويأكل زقومها وغسلينها ويشرب من حميمها وصديدها ، فيأمر النفس ويشارطها على طاعة الله وابتغاء مرضاته وينهاها عن الهوى ويحذرها خجلة الفضيحة يوم العرض.

-تذكير النفس بالله عندما يفاجئه شيء فيقول للشيء الذي تريده :

انك لتعجبني وإنك حاجتي لكن قد حيل بيني وبينك فإن ربي لا يرضاه . ((ولمن خاف مقام ربه جنتان))

-محاسبة النفس نهاية كل يوم ويكون بتذكر الخطيئات التي ارتكبها فيلوم النفس ويعاتبها ويستغفر الله الذي قال : ((ولا أقسم بالنفس اللوامة))

-معاقبة النفس : بما يردعها كأن يعاقبها بالصيام وبزيادة القيام بالليل أو بزيادة الصدقة او بزيادة الأوراد.

فإذا داوم الانسان على محاسبة نفسه كل يوم فإنه يصبح مع المحاسبة على شأن يحاسب نفسه على تضيع كل لحظة من حياته وكل نفس من أنفاسه جرى بغير ذكر الله ويصير بحيث يراقب خواطره ويزينه بميزان شرع الله ورسوله ، **والخواطر التي ترد على القلب ثلاثة:**

خاطر من الرحمن وخاطر من الشيطان وخاطر من النفس.

فأما الخاطر من الرحمن فيلقيه الملك الموكل بالخواطر في قلب

الانسان وهو أمر بالخير وإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما الخاطر من الشيطان فهو الوسوسة يدخلها الشيطان في قلب العبد وهي أمر بالشر وتيئيس من الخير وتكذيب بالحق واما خواطر النفس فهي حديث النفس المختلطة بين الخير والشر ومنها مالا يعرف هل هو خير أم شر إلا بعد التفكر في العواقب.

فالخاطر الذي من الرحمن واضح لكل عارف بما يحب الله ويرضاه.

أما الخواطر الواردة من الشيطان فهي نوعان:

-نوع ظاهر واضح وهو الأمر بالمعاصي والتنشيط لله والنهي عن الطاعة والتخذيل عنها

-ونوع خفي وهي الوساوس التي ظاهرها أمر بالخير لكنها تجر إلى شر ، وهذه تسمى المكائد الشيطانية وهذا النوع لا بد لمعرفته من قسطاس مستقيم يزن بها هذه الخواطر الواردة وهو ميزان رضا الله ورسوله ولابد للمريد من تعلم طريقة الوزن من الشيخ العارف بالله ولا بد من مذاكرته .

قال رسول الله ﷺ: ((إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم)) ، ثم قرأ {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء} رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، وصححه ابن حبان

قال ابن عاشر رحمه الله :

ويحفظُ المفروضَ رأسَ المالِ * والنفلَ ربحَه بهِ يوالي**

الشرح :

والأمر الثالث من الامتثال ظاهراً بعد صحبة الشيخ العارف المرشد إلى الحق وبعد محاسبة النفس ووزن الخواطر بميزان الشرع ، هو المحافظة على الفرائض التي افترضها الله على عباده المؤمنين وهذه الفرائض الظاهرة بدنية وقولية ومالية ونفسية ، وهذه الفرائض منها الصلوات الخمس فهي عبادة بدنية و فيها فرائض قولية كتكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة والصلاة النبي ﷺ ، وكفريضة الصلاة على النبي إذا ذكر وكرد السلام .

ومن الفرائض الصيام شهراً في كل سنة فإنها عبادة نفسية يتحمل فيها الانسان مشقة الامتناع عن شهوات النفس في الأكل والشرب والاستمتاع بالنساء وزينتهن ورائحتهن

وأصواتهن ، ومن الفرائض الزكاة على صاحب المال في كل عام مرة وهي عبادة مالية ونفسية فان نفسه إذا بذلت مع كفه تزكت نفسه من الشح والبخل ، ومن الفرائض الحج والعمرة على المستطيع وهي عبادة بدنية مالية ، ومن الفرائض الاحسان للوالدين والإنفاق على الزوجة والأولاد والمعاشرة بالمعروف وإحصان الزوجة عن الزنا والعدل بين الزوجات بالنفقة والمبيت والسكنى ، ومن الفرائض طاعة الزوجة لزوجها في غير معصية الخالق ، وطاعة الإمام المسلم بغير معصية الله ، ومن الفرائض إزالة الأذى عن طريق المسلمين وإزالة الضرر عن المسلم والشفاعة له لمن كان قادراً ، ومن الفرائض إنكار المنكر باليد واللسان على القادر عليه

وقول ابن عاشر (رأس المال) أي فكما يكون المحافظة رأس المال منجاة للتاجر من جحيم الفقر والذل في الحياة فكذلك يكون المحافظة على الفرائض بمثابة رأس المال الذي ينجو به من عذاب السعير ، قال الله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ))

فاذا سلم له رأس المال بالمحافظة عليه سعى إلى الزيادة عليه بالأرباح ، وطريق الربح في العبادات هو تعاطي النوافل من العبادات كنوافل الصلوات ونوافل الصيام ونوافل الصدقات وتكرار الحج والعمرة والزيادة في البر والإحسان .

وقول ابن عاشر : (به يوالي) فيها معنيان :

الاول : أنه بالمحافظ على النوافل تتوالى الارباح وتكثر ويزيد رأس المال قوة وثباتا .

والثاني : انه بالنوافل وبالربح الحاصل منها يوالي اللهَ ورسولَه ليصبح من جملة أولياء الله الذين أحبهم الله وتولاهم بالتوفيق لكل خير كما جاء في الحديث القدسي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)) رواه البخاري والإمام احمد

قال ابن عاشر رحمه الله :

ويكثِرُ الذكرَ بصفْوِ لبّهِ * والعونُ في جميعِ ذا بربِّهِ**

شرح :

والأمر الرابع من الامتثال ظاهراً بعد صحبة الشيخ العارف المرشد إلى الحق وبعد محاسبة النفس ووزن الخواطر بميزان الشرع والمحافظة على الفرائض والنوافل ، هو الإكثار من ذكر الله تعالى باللسان ، لأن الإكثار من ذكر الله فضيلة مطلوبة من العبد فقد قال ربنا عز وجل : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)) وحد الكثرة من الذكر يكون باتباع سيدنا مُحَمَّد ﷺ فقد كان أكثرا الناس ذكرا لله ، فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: (كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه) وإذا تتبعت سنته وهديه ستجد لكل حركة أذكار مأثورة ، فإذا قام من نومه قال : ((لا اله الا الله)) ويقول ((الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور)) ويمسح وجهه ويقرأ أواخر آل عمران ، وإذا ذهب للخلاء قال : ((اللهم إني أعوذ بك

من الخبث والخبائث)) وإذا قضى حاجته قال : ((غفرانك ، الحمد لله الذي اذهب عني الأذى وعافاني)) وإذا توضأ قال ((بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)) فان انتهى من الوضوء قال ((أشهد ان لا اله إلا الله وأشهد ان مُحَمَّدا عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين)) وإذا رجل شعره ، قال : بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وإذا نظر في المرآة قال ((اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي)) ثم يقبل على صلاته والصلاة كلها أذكار لله فإذا فرغ منها ذكر ربه ، فإذا خرج من البيت قال : ((بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله)) ثم يتوجه للمسجد ويذكر الله مع كل خطوة يخطوه فإذا دخل المسجد قال : ((أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم)) فإذا قضى صلاته ذكر المعقبات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر واستعاذ من النار ، وإذا دخل البيت قال : ((اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا ، وباسم الله

خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا)) وإذا اكل قال : بسم الله الرحمن الرحيم وإذا فرغ من الأكل قال : ((الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين)) وإذا أراد المؤمن أن يجامع زوجته قال : ((بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا)) وهكذا فالمؤمن لا يمر عليه وقت إلا وفيه ذكر لله وأعظم الأذكار تلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار والأدعية والصلوات والتسليمات على رسول الله ﷺ فينبغي لمن أراد التقرب لله أن يتخذ لنفسه ورداً من هذه الأذكار وأن يحرص أن يكون قلبه أثناء الذكر صافيا،

وصفاء لب المؤمن يكون بالأمور التالية :

- أن لا يكون في قلبه غل لمسلم فإن ذكر الله يرفع لمشاحن و إذا انزل الله مغفرة ورحمة على الناس فإن المتشاحنين يؤخران حتى يصطلحا .

- أن لا يكون كثرة ذكره لله رغبة في دنيا أو جاه أو مدح الناس

- أن لا يكون صاحب بدعة وهوى فهو يذكر الله بلسانه ومقيم على شهواته كالذي يقرأ كتاب الله ويغش في الميزان أو ينظر للنسوان .
- أن لا يكون غافلا عن معاني الذكر الذي يذكره ، كالذي يقول : يا قوي ولا يستحضر ضعف نفسه والذي يقول يا غني ولا يستحضر فقره وذله ، ويقوله يا غفور ولا يستحضر ندمه وأسفه .

فهذه الأمور الأربعة التي يجب امتثالها ظاهراً والأمور التي يجب اجتنابها لا تتم للعبد إلا بوجود العون من الله فربنا المعين هو الذي يوفق العبد في جميع ذلك فالعون منه وبه.

قال ابن عاشر رحمه الله :

يجاهدُ النفسَ لربِّ العالمينْ * ويتحلّى بمقاماتِ اليقينْ**

الشرح :

يبدأ ابن عاشر رحمه الله ببيان القسم الرابع من أقسام التقوى وهو ما يجب امتثاله باطناً ، وهي ثلاثة أمور : (الإخلاص والصدق والتحلي بمقامات اليقين)

وقد بدأ ابن عاشر رحمه الله بذكر الأمر الأول مما يجب على السالك امتثاله ، بطريقة المجاز حيث ذكر لنا أهم عنصر من عناصر الإخلاص وأراد به جميع عنصر الاخلاص ، وهذا من أساليب المجاز أن تذكر البعض وتريد به الكل.

فالإخلاص هو أن يكون اجتنباك وامتثالك الظاهر منه والباطن وميلك ومحبتك وبغضك كل ذلك ابتغاء وجه الله .

ولما كانت النفس تميل إلى كل لذة لذاتها سواء كانت حلالاً أو حراما كان ميلها هذا مخالف لمعنى الإخلاص لأن الاخلاص أن تميل النفس للحلال ابتغاء وجه الله لا ابتغاء الهوى والشهوة، وأن تخاف النفس من لذة الحرام ابتغاء وجه الله ، ولأن كل قول وعمل وحال يكون للنفس فيه مدخل ، فقد استعاض ابن عاشر عن ذكر الإخلاص ، بذكر أحد معانيه وهو : (يجاهد النفس لرب العالمين) فكأنه يقول لنا : المؤمن يجاهد نفسه حتى يكون ميلها في كل قول وعمل ومحبة وبغض خالصاً لوجه الله رب العالمين

والأمر الثاني الذي يجب امتثاله باطنا : هو التحلي بمقامات اليقين.

شبه ابن عاشر مقامات الإيمان بالجواهر التي تتحلى بها

الحسناء ، والجواهر لا توضع إلا على نظافة ، فنفس الانسان التي اغتسلت وتنظفت بالإجتناب عن الآثم وتحلت بلباس التقوى وعطر الإخلاص صارت جاهزة للزينة والجواهر واستكمال محاسنها لتعرض على ملك الملوك.

والمقام هو الصفة الشريفة التي إذا حلت بالمؤمن أقامت فيه ولم تخرج منه ما دام الايمان موجودا في القلب فإن كفر الإنسان خرجت المقامات من قلبه ، ولأن هذه المقامات تسقى من الإيمان لذلك سميت مقامات اليقين ، واليقين هو درجة الايمان الذي لا يعتريه أي شك في نفس المؤمن وعقله ولا يطوف بقلب صاحب اليقين أي ريب.

وهذه المقامات هي : الخوف والرجاء ، والشكر والصبر ، والزهد والتوكل ، والرضا والمحبة وسوف نفصلها ان شاء الله في شرح البيت التالي.

قال ابن عاشر رحمه الله :

خوفٌ رجا ، شكرٌ وصبرٌ ، توبةْ * زهدٌ ، توكلٌ ، رضا ، محبةْ**

الشرح :

والأمر الثاني مما يجب امتثاله باطنا هو التحلي بمقامات اليقين ، والمقام هو الوصف الثابت في الشيء لا يزول عنه كثبات الصفرة للذهب ، أما إذا لم يكون الوصف ثابتا في الشيء فهو الحال كحمرة الخجل في الخدود فإنه تزول بالمرض ويصير الوجه اصفر ، ومن المقامات التي يثبت وجودها في قلب السلكين ، الخوف وقد قدم ابن عاشر ذكر الخوف لأن

السالك فوات المحبوب أقرب من حصول المرغوب ، فما هو الخوف وما هي انواعه وفضله ؟

الخوف : هو انقباض النفس من تذكر مكروه مضى أو حضوره أو توقع حصوله في المستقبل ، ولقد خلق الله من الرحمة حصنا للخائفين يأمنون به فقال تعالى : ((فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)) فلا ملجأ من المخاوف إلى بالفرار إلى رحمة الله . وقال تعالى : ((وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)) وامتن الله بالأمن على الناس فقال : ((الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ))

الخوف المذموم والخوف الممدوح : لقد ذم ربنا الخوف من غير الله فقال تعالى لموسى : ((وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ

كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ))

ومدح ربنا المؤمنين الذي لا يخافون إلا الله فقال : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) .

أنواع الخوف :

- الخوف الفطري وهو الخوف من فوات اللذة الحسية والمعنوية والخوف من العذاب والهلاك والمرض والألم ونقص المال والثمرات وهذا الخوف يؤدي إلى الهلع والجزع واليأس وعلاجها يكون بالإيمان بان الله ابتلى

المؤمن بالمخاوف ليلتجئ إلى ربه فيعطيه الآمان ويعوضه عما أصابه قال تعالى : ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)) .

- خوف الخجلة والفضيحة : وهو خوف المؤمنين العاصين أن يظهر سوء أعمالهم للناس ويفتضحوا في الدنيا والآخرة ، فهؤلاء يلجأون لله ان يسترهم ويعفوا عنهم ويرزقهم حسن الخاتمة قال تعالى : ((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)) وقال عليه الصلاة والسلام : ((من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله

غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب

- خوف الرهبة والتعظيم فكان المؤمنون يرتدعون من خوف ربهم ويصعقون ويخشعون لله ويخشونه قال تعالى : ((وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)) وقال : ((إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)) .

- خوف المحبة : وهو خوف العارفين بالله المقيمين في حضرته أن يصرف عنهم الحبيب وجهه لحظة وأن يكلهم إلى انفسهم طرفة عين ، قال عليه الصلاة والسلام : ((اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى

نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت

)) رواه احمد

زيادة الخوف :

إذا زاد الخوف عن حده كان كالطائر الذي يطير بجناح واحد فينبغي أن يطير بجناحين والجناحان هما الخوف والرجاء فلا بد للخائف أن يأخذ حظاً من الرجاء حتى يتوازن في سلوكه . كما يتوازن الطير في السماء

الرجاء : ومن المقامات التي يثبت وجودها في قلب السالك ، الرجاء فما هو ما فضله ؟

الرجاء : هو توقع محبوب يحصل في المستقبل وارتياح القلب لهذا الخاطر مع اتخاذ السالك جميع أسبابه الاختيارية ، كمن اختار أرضاً طيبة يمر بها الماء ونقاها من الاحجار والأعشاب

الضارة وبذر فيها البذر الجيد ، ثم اخذ ينتظر حصول ما يسره من الخير فانتظاره وتوقعه وارتياح قلبه للأمر المحبوب هو الرجاء ، أما إن بذر البذر في أرض جيدة لا ماء لها وهو ينتظر المطر والمحصول الطيب فهذا هو التمني ، وأما ان يبذر البذر في ارض فاسدة ليس لها ماء ثم يتوقع المحصول الجيد فهذا هو الغرور والحمق ، قال الله تعالى : ((فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)) فهؤلاء حمقى يرجون المغفرة ويأخذون بأسباب مقت لله .

وقال تعالى : ((فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)) فالرجاء يكون مقاماً إذا كان صاحبه مؤمنا يعمل صالحا .

وقد رغب الله بالرجاء ومدح الراجين فقال : ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ))

وقال ﷺ : ((يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)) متفق عليه

وقال عليه الصلاة والسلام : ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله تعالى)) رواه مسلم

وحذر ربنا من ترك الرجاء فقال : ((قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))

وذم الذين لا يرجون لقاء ربهم : ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))

من هو الذي يحتاج للرجاء ؟

صنفان ، صنف تركوا العبادة لأنهم يأيسوا من رحمة الله ، وصنف اكثروا من العبادة خوفا من النار ، أما العاصي المغرور الذي يعرض عن الله ويظن أن له الحسنى فهذا لا ينفعه الرجاء بل الرجاء سمٌّ له ، والذي ينفعه هو الترهيب و استجلاب أسباب الخوف .

الشكر : ومن مقامات الإيمان التي يثبت وجودها في قلب السالك الشكر وهو معرفة النعمة والمنعِم والقيام بمقصود المنعم ومحبوبه ، فالشكر يتضمن ثلاثة أشياء :

العلم : بأن يعلم عين النعمة وذات وصفات المنعم

والحال القلبي: وهو الفرح بنعمة الله وبفضله وخجل النفس من التقصير في جنب المنعم .

وعمل الجوارح : وهو الثناء والحمد باللسان استخدام النعمة فيما يرضى الله .

والشكر من أخلاق الربوبية فقد صف نفسه بأنه شكور فقال الله تعالى : ((والله شكور حليم)) وقال تعالى : ((إنه غفور شكور))

والشكر من أخلاق صفوة عباد الله فعن المغيرة ﵁ قال : قام النبي ﷺ حتى ورمت قدماه ، قالوا : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : ((أفلا أكون عبدا شكورا)) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وسيدنا مُحَّمد هو سيد الشاكرين الحمّادين وهو صاحب لواء الحمد كل الشاكرين تحت لوائه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي)) رواه الامام أحمد وصححه ابن حبان وحسنه الترمذي

وقال تعالى عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام : ((شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم)) وقال تعالى عن نوح ((إنه كان عبدا شكورا)) وقال عن داود وأهله ((اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور)) ولأنه مقام عال فكان الشاكرون قليلين وقد جمع الله للشاكرين فضائل كثيرة في قوله ((لئن شكرتم لأزيدنكم))

مراتب الشكر :

- رتبة الشكر على النعم وهي رتبة العوام والخواص من المؤمنين
- رتبة الشكر على كل حال سواء كان نعمة أو مصيبة ، وهي رتبة الخواص من المؤمنين ومن تحقق بهذه الرتبة يكون عبداً شكورا لذلك ندبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للرقي لهذه الحالة فعلمنا عن نحمد الله عند المصيبة والمكروه كما نحمده عن النعمة ونحمد على كل حال يفعله الكريم بنا .

مسألة استحالة الشكر :

يذكر العارفون بالله أثرا توارثوه من الأمم السابقة أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك وشكري لك هو نعمة منك ، فاوحى الله إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني .

الصبر : ومن مقامات الإيمان التي يثبت وجودها في قلب السالك الصبر ، ما هو الصبر ؟

الصبر: عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فيبعث المؤمن على ترك الافعال والأقوال المشتهاة

وباعث الدين هو معرفة قبح الشهوات وسوء عاقبتها وهذا المعرفة تأتي من كتاب الله ونصح رسول الله والصالحين وإلهام الملائكة ، بينما باعث الهوى يأتي من شياطين الجن والإنس وهو قسمان : باعث الشهوة وباعث الغضب

والصبر له أسماء منها أن الصبر عن شهوة البطن والفرج يسمى عفة ، واذا كان الصبر على المصائب يسمى صبراً ، ومنها ان الصبر في كظم الغيظ والغضب يسمى حلماً ، والصبر على قلة الحظوظ يسمى قناعة ، والصبر على ترك فضول العيش يسمى زهداً .

والناس في الصبر درجات :

الصديقون : وهم الذي دام لهم الصبر حتى غلب باعث الايمان باعث الهوى وهؤلاء هم الذين استقاموا.

الغافلون:وهم الذين غلب باعث الهوى فيهم على باعث الدين

المجاهدون : وهم الذين في حرب وسجال بين باعث الايمان وباعث الهوى وهم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا

لذلك كان المؤمنون يتواصون بالحق والصبر لتقوية باعث الايمان .

ومن فضائل الصبر أن الله يدخل الصابرين الجنة بغير حساب ((إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)) ويجعل لهم العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة ((سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)) ويجعل الصابرين أئمة هدى يقتدى بهم ((وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)) ويجعل لهم المعية الخاصة والمحبة ((إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)) ((وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)) وجمع لهم البشرى والصلوات والرحمات والهداية : ((وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ))

التوبة : ومن مقامات الإيمان التي يثبت وجودها في قلب السالك التوبة : وهي معنى ينتظم من ثلاثة أنوار مرتبة وهي العلم فالحال فالفعل فأول ما يفيض على العبد نور المعرفة بضرر الذنب وأنه حاجب للعبد عن الرب المحبوب فيثير هذا العلم حالة من التألم على فوات محبوب وهذا الألم هو نور يسري في القلب فإذا سرى فيه هذا النور فإنه يحرك إرادة الإنسان فيندم ويحرك عزمه على ترك الذنب في الحال وعلى تلافي نتائج ذنبه في الماضي ويعزم على عدم العودة إليه .

متى تصبح التوبة مقاما ثابتا في قلب العبد ؟

يبتدئ العبد السلوك إلى ربه بالتوبة عن المعاصي ويظل يتوب كلما وقع في المعاصي والخطايا حتى يصبح تواباً فإذا صار تواباً فإنه لا يكتب له ذنب لأن كاتب السيئات لا يكتب

السيئة حتى يأمره كاتب الحسنات لأنه هو الأمير على كاتب السيئات ، فعندما يذنب العبد فإن الملك الموكل بكتابة السيئات يستأخر كتابة السيئة بضع ساعات إمهالاً للعبد حتى يتوب قبل كتابة السيئة فإذا ذهبت المهلة أثبت الملك السيئة في كتاب العبد.

قال رسول الله ﷺ : ((إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ أو المسيء فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتب واحدة)) رواه الطبراني بإسناد جيد

وهكذا إذا كان العبد يتوب كلما أخطأ فإن التوبة تصبح مقاما ثابتا للعبد ، وعند ذلك يقول له ربه اعمل ما شئت فقد **غفرت لك** ، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ((أن رجلا أذنب ذنبا، فقال: أي رب، أذنبت ذنبا أو قال: عملت عملا فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: عبدي عمل ذنبا فعلم أن له ربا

يغفر   الذنب، ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنبا آخر أو، قال: عمل ذنبا آخر، قال: رب إني عملت ذنبا فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبا آخر أو أذنب ذنبا آخر، فقال: رب إني عملت ذنبا فاغفر لي، فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء)) رواه أحمد والبخاري ومسلم والحاكم وابن حبان واللفظ له

لماذا وضع ابن عاشر التوبة بعد الخوف والرجاء والشكر والصبر مع ان التوبة هي أول المقامات ؟

لأن الخوف والرجاء والشكر والصبر من لوازم التوبة فلا تتم توبة التائب إذا لم يكن خائفاً من ربه وراجياً عفوه وصابرا على ترك الشهوات وشاكرا لنعمة الله .

لماذا ذكر ابن عاشر التوبة هنا مع انه ذكر التوبة في أول بيت من مبادي التصوف وهوادي التعرف ؟

في بداية النظم ذكر وجوب التوبة بشكل خاص على كل مريد لسلوك طريق الوصول إلى الله ، ثم ذكر التوبة مرة أخرى في ذكر مقامات اليقين لأنه يقصد بالتوبة هنا هي توبة المتقين ، والمقصود بها التوبة عن اللمم وقصور الرأي بالاجتهاد والتقصير في الشكر والعبادة ، والتوبة عند بلوغ درجة من درجات الكمال عن الدرجة التي سبقتها وهذه هي درجة توبة المقربين .

الزهد :ومن مقامات الإيمان التي يثبت وجودها في قلب السالك الزهد فما هو وما فضله وما درجاته ؟

الزهد : هو حال ينبعث من نور معرفة المحبوبات الباقية فيؤدي بالمؤمن ترك التعلق بالدنيا الفانية للحصول على ما هو أفضل وأكمل ، قال الله تعالى حكاية عن أخوة يوسف : ((

وكانوا فيه من الزاهدين)) فقد تركوا أخاهم يوسف وباعوه بثمن بخس للحصول على خلو وجه أبيهم لهم فسمى الله عملهم زهداً ، لكنه زهد قبيح نابع من الجهل والوهم وليس من نور العلم لأنهم لو عرفوا الحق لعرفوا أن إكرام يوسف من اسباب محبة أبيه لهم .

والزهد يؤدي إلى المحبة ، قال رسول الله ﷺ : ((ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)) رواه ابن ماجه وغيره وصححه الحاكم وحسنه النووي وابن حجر وغيرهم ، ومحبة الله هي مطلب الزاهدين الصادقين ، ومحبة الناس مطية يتوصل بها الزاهد لنشر دين الإسلام والإصلاح بين الناس .

درجات الزهد :

- زهد العاصين : ويكون بترك المحرمات والاقبال على المباحات

-زهد المتقين : ويكون بترك فضول المباحات من الطعام والشراب والنكاح واللباس والزينة والدور والضيعات والكلام

-زهد العارفين : ويكون بترك كل ما يشغلهم عن الله ، وصفة ذلك أن العارف بالله لا يتعاطى من الدنيا إلا ما يجب عليه .

ميزان الزهد :

خطب عمرو بن العاص ﵁ فقال : ((أيها الناس كان نبيكم ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأصبحتم أرغب الناس فيها)) صححه الحاكم وابن حبان ،

فلما كان النبي عليه الصلاة والسلام أزهد الناس دل ذلك على أن هديه وسننه وأدابه هي النموذج الأعلى للزهد فعلى

السالك ان يسير على سنته ويهتدي بهديه عليه الصلاة والسلام فيتحقق في كمال الزهد .

التوكل : ومن مقامات الإيمان التي يثبت وجودها في قلب السالك التوكل ، فما هو وما فضله ؟

التوكل : هو اعتماد القلب على الوكيل الذي لا منتهى لعلمه وقدرته ورحمته عند مباشرة الأسباب قال تعالى : ((فإذا عزمت فتوكل)) أي اذا اتخذت الاسباب والمشورة فاجعل قلبك معتمدا على الله ، وقال تعالى ((فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)) فأمر باتخاذ أمور جعلها الله أسبابا للوصول إلى الرزق مع اعتماد القلب على الرزاق .

وقال رسول الله ﷺ : ((تداووا عباد الله، فإن الله عز وجل لم ينزل داء، إلا أنزل معه شفاء ، إلا الموت ، والهرم)) رواه

الإمام احمد وغيره ، فأمر باتخاذ الأمور التي خلقها الله أسباباً للشفاء كالطبيب والدواء مع اعتماد القلب على الرب الشافي الرحيم كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ((وإذا مرضت فهو يشفين)) وكقول سيدنا مُحَّد ﷺ : ((لا شفاء إلا شفاؤك)) متفق عليه

وأعطى النبي ﷺ صورة المتوكل كصورة الطيور تغدو في أول الصباح ثم ترجع إلى وكناتها شبعانة ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)) رواه الامام أحمد وغيره

ومن فضائل التوكل المحبة فإن الله خصص المتوكلين بمحبته فقال الله تعالى : ((فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ))

ومن فضائل التوكل أن الله منح المتوكلين الكفاية والرعاية فقال : ((وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)) لذلك فإن الهموم تزول عن المؤمن المتوكل وحاجته مقضية .

ومن فضائله الحماية من الشيطان قال الله تعالى : ((إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))

ومن فضائله النصر قال تعالى : ((إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ))

ومن فضائله دخول الجنة بغير حساب روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون))

الفرق بين التوكل والتفويض :

عندما تكون الاسباب متوفرة فان تعاطي الاسباب مع اعتماد القلب على العليم القدير الرحيم فهذا توكل أما إذا لم تكن الأسباب متوفرة فيعتمد قلبه على الله فهذا تفويض ، ومثال التوكل رجل جائع فانه يخرج ويمشي لعله يجد ما يأكله وقلبه معتمد على الله في تأمين طعام له ومثال التفويض رجل مشلول ليس عنده من يخدمه وهو جائع ولا يستطع ان يأكل ولا أن يتحرك فيبحث عن طعام فهذا يفوض أمره إلى الله .

قال سيدنا يعقوب : ((وأفوض امري إلى الله)) لأن يعقوب يشعر أن يوسف ما يزال حيا ، لكن ليس لديه سبب علم أين هو وكيف الوصول إليه .

الرضا : ومن مقامات الإيمان التي يثبت وجودها في قلب السالك الرضا فما هو وما فضله؟

الرضا :هو السرور بفعل الله مصيبة كان أو نعمة ، والرضا من ثمرات المحبة وهو أعلى مقامات المقربين قال الله تعالى : ((رضي الله عنهم ورضوا عنه))

ومن فضائل الرضا عن الله أن الله يرضى عنهم ، وأن الرضا أكبر من الجنة قال تعالى : ((ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر)) والرضا سبب المعرفة وهي تذوق طعم الايمان قال عليه الصلاة والسلام : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا)) رواه مسلم

وأن رضا الله هو مطلوب أهل الجنة لأنه سبب دوام النظر إلى ربهم قال النبي ﷺ: ((إن الله يقول لأهل الجن ة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)) رواه البخاري ومسلم

علامات أهل الرضا :

إن أحدهم إذا مرض لم يتمنى خلاف ما قدر الله عليه ، وإذا جاع لم يتمنى خلاف ما قدر الله عليه ، سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة ، يستوى عنده المنع والعطاء .

شبهة الرضا بالمعصية :

يرى بعض الحمقى أن من الرضا أن يرضى الانسان بالمعاصي ويسر بالفجور والشرور لأن الله خالق كل شيء ، وكل شيء يجري بتقدير من الله .

والرد على ذلك : ان من الرضا اتباع أوامر الله ومن أوامر الله كراهة المعصية ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن الله لم يرض على أناس لأنهم رضوا بالحياة والدنيا وما فيها من فجور وشهوات ، فقال فيهم : ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))

شبهة ترك الدعاء :

يرى البعض أن الدعاء يتعارض مع الرضا ، والحق أن الدعاء لا يتعارض مع الرضا لأن الله أمر بالدعاء ورضي عن الذين يدعون ربهم رغبة ورهبة وخوفا وطمعا ، فالقائم بأمر الله ابتغاء رضوان الله فهو طالب لرضا الله .

المحبة : ومن مقامات الإيمان التي يثبت وجودها في قلب السالك المحبة فما هي وما حكمها وما فضلها ؟

والمحبة : هي ميل الطبع لما فيه لذة .

ومحبة الله ورسوله والمحبة لأجلهما ومحبة ما يقرب إلى الله ورسوله فرض على من أكرمه الله بالإيمان والمعرفة .

قال رسول الله ﷺ : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)) متفق عليه

فمحبة الله ورسوله ومحبة من يحب الله ورسوله ومحبة العمل الذي يقرب إلى الله ورسوله والنفرة عمّا يبعده عن الله ورسوله سبب في حصول حلاوة عظيمة في القلب وهي معرفة الله

تعالى ومشاهدته وهي أعظم لذة تحصل للإنسان ، ولأن لذة معرفة الله هي الأعظم فلا بد أن يقدمها صاحب الطبع السليم على كل محبوب .

ففي قوله عليه الصلاة والسلام : ((أن يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما)) فقد قرن الله حبه بمحبة النبي عليه الصلاة والسلام لأن محبة رسول الله ﷺ هي عين محبة الله ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : ((لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) رواه البخاري ومسلم

فلا يتحقق الإيمان إلا بتقديم محبة رسول الله ﷺ على كل محبوب بما فيها نفس الإنسان فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال النبي صلى الله عليه سلم: ((لا والذي نفسي بيده ، حتى أكون

أحب إليك من نفسك)) فقال له عمر : فإنه الآن ، والله ، لأنت أحب إلي من نفسي ، فقال النبي ﷺ: ((الآن يا عمر)) رواه البخاري .

ومن فضائل المحبة : أن يكون الانسان مع من أحب وإن لم كان دونه بالعمل فعن أنس رضي الله عنه ، أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة ؟ قال: ((وماذا أعددت لها)) . قال: لا شيء ، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: ((أنت مع من أحببت)) . قال أنس: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي ﷺ: ((أنت مع من أحببت)) قال أنس: ((فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم)) متفق عليه

فنحن نحب رسول الله وأصحابه وأوليائه ونرجو أن نكون معهم وإن لم نعمل بمثل اعمالهم .

ومن حقائق المحبة أن المحب يعيش في لذة لو عرفه الملوك لجالدوه عليها بالسيف والمحب يستلذ بكل ما يفعله حبيبه ولو

كان مؤلما عند غيره كما قال المحبون : ضرب الحبيب كأكل الزبيب ، وروى ابن ابي شيبة عن شهر بن حوشب، قال: أخذت معاذا قرحة في حلقه فقال : ((اخنقني خنقك فوعزتك إني لأحبك)) فهذا معاذ ﷺ يستلذ بما يفعله به حبيبه سبحانه وتعالى .

قال ابن عاشر رحمه الله :

يصدُقُ شاهدَه في المعاملهْ * يرضى بما قدّره الإلهُ لهْ**

الشرح :

هذا البيت تتمة لبيان القسم الرابع من التقوى وهو الامتثال باطناً ، وقد ذكر سابقا صحبة الشيخ العارف والمحافظة على الفرض والنفل ومحاسبة النفس ومجاهدتها والتحلي بمقامات اليقين ، ثم يذكر ابن عاشر تتمة ما يجب امتثاله وهو الصدق بالمعاملة والرضا بالقدر .

وصدق الشاهد : هو أن يتعامل مع الخلق بحيث لو اطلعوا على حقيقة معاملته وصفوه بالصدق وشاهد الانسان ربه فهو الشهيد على أعماله ، والملائكة الكتبة يشاهدون اعماله ، ويعرض عمله بحقيقته على سيدنا رسول الله ﷺ : قال عليه الصلاة والسلام : ((حياتي خير لكم وموتي خير لكم، أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع. وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه، وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم)) أخرجه البزار بسند حسن

وأما الرضا بما قدره الله له أن لا يكره أقدار الله حلوها ومرها خيرها وشرها فيرضى بالمصيبة كما يرضى بالنعمة

إن قيل قد ذكر ابن عاشر الرضا في مقامات اليمين فلماذا أعاد ذكره ؟

اعاد ابن عاشر ذكر أهم عنصر من عناصر الرضا وهو الرضا بالقدر خيره وشره لأهميته ولنه ركن من اركان الايمان لذلك استوجب التأكيد عليه .

قال ابن عاشر رحمه الله :

يصيرُ عندَ ذاكَ عارفاً بهِ * حراً وغيرُهُ خَلا مِنْ قلبهِ**

فحَبَّه الإلهُ واصْطفاهُ * لحضرةِ القُدُّوسِ واجتباهُ**

شرح :

يعني من أقبل إلى الله تائبا واجتنب قول وفعل واعتقاد ما لا يرضى الله عنه ، وامتثل أوامر الله تعالى ولتزم محبوباته وطهر قلبه من الآفات وحلاه بفضائل الايمان وثبت على تلك المقامات فإنه يصير عارفاً بالله لا يعبد سوى ربه ، وهكذا فهو حر لا يستعبده جن ولا إنس ولا تأسره شهوة ولا يتملكه

هوى ، فهو متحرر من كل آسر سوى الله سبحانه وتعالى تخدمه الدنيا وتهابه السلاطين .

ومن خلا من قلبه معرفة الله فإنه يصير عبداً للشيطان والشهوات مأسوراً بالأهواء .

فمن صار عارفاً بالله فقد ثبت له حب الله ، ومن احبه الله فإنه يصطفيه عليه خلقه ويطالعه على ملكوته وينعم عليه بالتشريفات والكرامات الحسية والمعنوية ويدخله في حضرته الخاصة التي تسمى حضرة القدس لأن كل ما فيها وجميع من فيها طاهرون لا عيب فيهم ولا نقص في جمالهم ، فإذا صار من اهل حضرة القدوس فيوشك أن يكرم بالاجتباء وهو اختيار الله بعض أهل هذه الحضرة لمقام مطالعة ذات الله كما حصل لبعض الأقطاب كأحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلاني وأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهم

الخاتمة

الحمد الله الذي اصطفى من خلقه إلى حضرة قدسه ، واجتبى من أوليائه لمطالعة عظيم بهائه وكمال جماله ، ثم من على الناس بأن أدرج أهله العارفين به بين الناس يسلكون بهم إلى طريق معرفة الله ، ويرشدونهم ويهذبونهم ، وينفحونهم بعطور المعاني التي تأسر النفوس وتطرب الأرواح ، تغمر القلوب بالأشوق ، وتحرك الهمم نحو المعالي من ، وتوجه النوايا نحو باب واحد يأتي منه أنوار الهداية وأسرار والمسرات .

والصلاة والسلام على من لأجله خلق الله كل خير وجمال فبه اللهم اجعلنا من العارفين بك تحبهم وترضاهم كما اكرمت آل وأصحابك نبيك الكريم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.